الأسس المرجعية لمبادئ الفكر التربوي الإسلامي

للأستاذ: محمد البوزيري
مفتش ممتاز بالتعليم الثانوي
(من قدماء علماء و طلبة جامعة ابن يوسف بمراكش)

لكل مشروع تربوي دعائم فكرية ينبني عليها صرحه، وله أسس فكرية ومبادئ نسقية ينطلق منها ويقيم عليها فلسفته، ويسدد من خلالها نظرته إلى العالم، والحياة، والإنسان في تناغم وانسجام.

كما أن لكل مذهب تربوي مرجعيته التي يستمد منها غاياته ومراميه، ويحدد انطلاقا منها أهدافه الصريحة والمضمرة، القريبة أو البعيدة، آجلا أو عاجلا.

وهذه المرجعية هي التي تمنح هذا المشروع شرعيته وتكسبه مشروعيته. ولاسيما إذا كان هذا المشروع يكتسي طابع المنظومة، وتحكمه مجموعة من المبادئ والأسس التي توجهه وتشكل عناصر وجوده ووشيجة اتساقه، ومما تجدر الإشارة إليه -في البداية - أن مشروع الفكر التربوي الإسلامي - الذي يتخذ من الإسلام موجهه ومصدره -ليس مشروعا مرحليا يخضع للتجريب والتقويم على مستوى الأسس والمبادئ الكبرى لفلسفته.

بل هو مشروع يرتكز على حقائق تستمد من روح الإسلام كليتها وثباتها، في إطار تربية شاملة لكافة جوانب الشخصية الإنسانية، من أجل إسعاد الإنسان والوصول به إلى عامل النفس المطمئنة.

إن المبادئ العامة والكلية للنظام الإسلامي، وإن فلسفة الإسلام المنظمة للعلاقة بين الكون والإنسان والحياة، هي نفس المبادئ والفلسفة المنظمة للتربية في جانبها النظري، وفي مستواها العملي والتطبيقي في مجالي التعليم والتعلم، الإفادة والاستفادة "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون"1.

وكل انحراف عن هذه المبادئ في المجال التربوي هو انحراف عن المبادئ المؤسسة للنظام الإسلامي في كليته.

وكل تربية لا تستلهم هذه المبادئ- في تصورها وتخطيطها - هي تربية لا صلة لها بالإسلام ونظرته إلى العلاقة بين عناصر الكون بما فيها الإنسان الذي استخلفه الله في هذه الأرض بعد أن فضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

وكل باحث في الحقل التربوي في الفكر الإسلامي لا مندوحة له من معرفة مبادئ هذا الفكر، والإحاطة بأسسه المرجعية التي تعد رافدا أساسيا من روافد هذه التربية.

انطلاقا من كل الأسباب السابقة، وبناء على الدواعي السالفة يمكن عرض ومناقشة مبادئ الفكر التربوي الإسلامي على النحو الآتي:

* المبدأ الأول : المرجعان الأساسيان لتحديد قواعد السلوك وضبط معايير التعامل في كل المجالات هما : القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة.

وتتجلى هذه المجالات فـي :

- علاقة الإنسان بخالقه .

- علاقة الإنسان بنفسه.

- علاقة الإنسان بغيره من أبناء قومه وأمته.

- علاقته بغيره من أفراد المجموعة الإنسانية.

- علاقة الفرد بالدولة والمجتمع ...

- علاقة الفرد بمظاهر الكون: من الجمادات والظواهر والأحياء ...

وكل سلوك أو موقف يتعارض أو يتنافى مع نص صريح من نصوص المرجعين السابقين يعد سلوكا لا تربويا من الوجهة الإسلامية.

وتبعا لذلك فإن ذلك السلوك يفقد شرعيته ومشروعيته.

إذ لا يجوز الاجتهاد مع ورود النص القطعي الصريح. وفي هذا الإطار يقول الإمام الشوكاني : " لا يجوز الاجتهاد في القطعيات"2.

وكل عمل أو سلوك لم ينص عليه في القرآن أو الحديث يرجع فيه إلى الإجماع، أو الاجتهاد، أو القياس، مع مراعاة المصالح المرسلة، وما جد في العصر من قضايا، بشرط ألا يتعارض ذلك مع فلسفة الشرع الرامية إلى تحقيق التوازن والانسجام بين القيم والمعايير والمبادئ الكلية، وتكون الأمة - بعد ذلك - حرة في اختيار أساليبها التربوية، بما فيها أساليب التعليم والتعلم، مادامت هذه الأساليب تخدم الفلسفة العامة للرؤية الإسلامية لنوع الإنسان الذي تريده، ولنوع المشروع المجتمعي الذي تهدف إلى إقامته فوق هذه الأرض، مادامت هذه الأساليب لا تتعارض مع أي مبدأ من المبادئ الإنسانية في كليتها وشمولها.

وفي ضوء هذه المعايير يعرض كل نظام تربوي في المجتمع الإسلامي. وانطلاقا من ذلك يتم قياس العلوم والمعارف والفنون.

فكل علم وافق روح الشرع يكون مقبولا ومرغوبا فيه، وكل علم كان متعارضا مع تلك الروح يكون مرفوضا ومنهيا عنه. لأن هذا الأخير لا يتفق مع المقاصد والغايات العامة للنظام التربوي الإسلامي، سواء كانت تلك المعارف نتيجة لجهود المسلمين وإبداعهم، أو كانت وافدة عليهم من ثقافات ومجتمعات أخرى.

أما بالنسبة لطلب العلم في المنظومة التربوية الإسلامية، فإنه قد يصل في بعض الأحيان إلى درجة فرض العين. قال النبي صلى الله عليه وسلم : "طلب العلم فريضة على كل مسلم"3.

وقد اجتهد العلماء في بيان هذا العلم الذي قد يصل إلى درجة فرض العين، كما بينوا أصناف العلوم التي تدخل في فروض الكفاية.

أما العلوم والمعارف التي لا تتفق مع الرؤية الإسلامية، ولا تنسجم مع مقاصدها، فإنها علوم مرفوضة. والغاية من ذلك هي حماية الإنسان من كل ما من شأنه أن يشوش على طبيعته وفطرته، ومن كل ما من شأنه أن يدنس القيم الإيجابية النبيلة في المجتمع الإنساني.

إن المعرفة في الإسلام هي ملك لجميع الناس كالماء والهواء، وهي بذلك من حقوق الإنسان، إذ لا يجوز احتكار العلم أو كتمانه. ولهذا توعد النبي صلى الله عليه وسلم كاتم العلم بسوء المصير حيث قال: "من سئل علما فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار"4.

إن أهم مبدإ أساسي في الفكر التربوي الإسلامي يتجلى في الاعتماد على القرآن الكريم والحديث النبوي واستلهام أحكامهما عند تشريع القضايا التربوية في العالم الإسلامي.

* المبدأ الثاني : مبدأ القدوة، قولا وعملا، أخلاقا وسلوكا، نظرية وممارسة. إن الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة لما يجب أن يكون عليه المربي المسلم على المستوى السلوكي، وعلى صعيد الممارسة.

ومن هذه السيرة النبوية يستمد المربي المسلم شخصيته، ومنها يقتبس معاييره التي تضبط سلوكه مع نفسه، ومع كل من أوكل إليه أمر تربيته وإرشاده وتعليمه من ناشئة الأمة.

واعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة داخل في جوهر الرسالة التي كلف بتبليغها، لأنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ولأن الله اصطفاه من بين خلقه لأداء هذه الرسالة وهذه المسؤولية / مسؤولية الأمانة في التبليغ.

في هذا الإطار جاء اعتماد مبدأ القدوة شرطا أساسيا في العملية التربوية في الفكر التربوي الإسلامي: تهذيبا، وتعليما، وتعلما.

فالرسول صلى الله عليه وسلم قدوة لأنه بعث لإنقاذ الإنسانية من دياجير الشرك والوثنية، والوصول به إلى نور الإيمان.

والمعلم المدرس العالم المسلم (المقتدي) كلف بإنقاذ المتعلم من الجهل، والوصول به إلى نور العلم والمعرفة، لهذا اعتبر العلماء ورثة الأنبياء في أداء الرسالة والإخلاص في التبليغ.

إن العملية التربوية في جانبها التهذيبي، والعملية التعليمية في جانبها التعليمي التعلمي ترتكزان على مبدإ القدوة والاقتداء :

اقتداء المعلم والمدرس بأخلاق المربي الأول وبسيرته: سلوكا وعملا وقولا.. واقتداء المتعلم بسيرة مدرسه وبسلوكه.

ومن البديهي أن المدرس في الفكر التربوي الإسلامي لا يقتدى به إلا إذا كان أهلا لهذه القدوة.

* المبدأ الثالث : التقويم الشامل لشخصية الفرد في كل أبعادها وجوانبها .

إن شخصية الفرد يمكن تقسيمها - تجاوزا فقط - إلى ثلاثة أبعاد وهي :

- البعد العقلي / المعرفي.

- البعد العاطفي / الوجداني.

- البعد الحسي / الحركي.

إن هذا التقسيم الثلاثي اقتضته الدراسة المنهجية فقط. لأن الشخصية الإنسانية كل مركب على شكل بنية يتفاعل في إطارها العنصر العقلي بالجانب الوجداني، في انسجام مع الجانب الجسدي/ الحسي/ الحركي. وإن الفرد مسؤول عن هذه الجوانب كلها، وهذه المسؤولية مستمرة في الحياة الدنيا بمجرد أن يصل الفرد إلى مرحلة التكليف.

إن الفرد في الفكر التربوي الإسلامي هو أول من يمارس عملية التقويم على نفسه، في إطار المراقبة الذاتية، انطلاقا مما يتوافر عنده من الضمير الديني الذي تنميه - عنده التربية الإسلامية بمفهومها الشامل.

إنه مسؤول مسئولية كاملة عن تصرفاته ومواقفه، وعن وسائل وأدوات إدراك العلوم والمعارف، من عقل، وحواس، وجوارح . . .

إنه مطالب بالمحافظة على هذه الأدوات، بتنميتها، وصقلها، والرقي بها إلى درجات الكمال الإنساني.

- إنه مسؤول عن قلبه ونوابضه الوجدانية والعاطفية.

- مسؤول عن عقله ومداركه الفكرية وقوته الذهنية.

- مسؤول عن حواسه التي يكتسب عن طريقها ما يحتاج له وجوده وبقاؤه من المهارات والقدرات التي تكون عنده الكفايات بمختلف أنواعها وأصنافها.

وهذه المسؤولية مرتبطة بشروط القدرة والتكليف. إذ لا مسؤولية مع انتفاء التكليف وحرية التصرف والإرادة في اتخاذ القرار.

يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد: "إن جزءا من أعمالنا منسوب إلى الإرادة، وذلك ما يسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب.

وفي نطاق هذا التكليف تتحقق المسؤولية، وتتم عملية التقويم. قال تعالى: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى"5.

وقبل أن توكل عملية التقويم إلى سلطة خارجية عن ذات الفرد، فهي موكولة إليه بالدرجة الأولى. وهذا ما يمكن أن يطلق عليه التقويم الذاتي. وإن هذا التقويم هو الكفيل بأن يجعله يراجع مواقفه، ويكيف تصرفه انطلاقا من هذه الرقابة الذاتية التي تختلف أسماؤها، فهي مرة تسمى الوازع الديني، وتارة يطلقون عليها الضمير الديني، وقد تسمى بالرادع الأخلاقي.

ولهذا تلح التربية - التي تتخذ من الإسلام مرجعها - على ممارسة الرقابة الذاتية، حتى يراقب الفرد ذاته بذاته، ونفسه بنفسه، ويقوم بتقويم أعماله وسلوكه.

أما السلطة الخارجية، فإنها لا تتدخل إلا في الوقت الذي يضعف فيه هذا الوازع أو الرادع.

وتبدأ مرحلة تكوين الوازع الديني - عند الناشئة - منذ الصغر، حتى يتم الاعتماد على هذا الرادع في مرحلة التكليف. ويتم ذلك عن طريق غرس مجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية التي يتلقاها الطفل بواسطة التنشئة الاجتماعية. ويتلقاها المتعلم - نظريا وممارسة - عن طريق الاقتداء بمربيه ومعلميه ومدرسيه الذين يجسمون هذه القيم الإيجابية في سلوكهم قولا وعملا وممارسة.

إن الفكر التربوي الإسلامي يركز - بالنسبة للجانب التهذيبي بصفة عامة، وبالنسبة للجانب التعليمي بصفة خاصة - في البداية على الجانب الوجداني والروحي الذي عن طريقه يتم اكتساب القيم التي من شأنها أن تزود المتعلم بأسباب المناعة.

ثم تأتي - بعد ذلك - مرحلة اكتساب المعرفة.

أما التربية المادية، فإنها تعتني بالجانب المعرفي بالدرجة الأولى، ولا اعتبار لديها للجانب الروحي.

ولذلك فإن عملية التقويم في الفكر التربوي الإسلامي عملية شاملة ومستمرة، وتتناول جميع جوانب الشخصية: عقلا، روحا، وجسدا. والمؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف.

لذا تجب العناية بروح المتعلم ووجدانه، حتى يكتسب منظومة القيم التي تمنحه المناعة في حياته.

كما يجب الاعتناء بعقله الذي سيوظفه في اكتساب المعرفة وفي إنتاجها.

وفي الوقت نفسه يجب الاعتناء بجسده، عن طريق الرياضة التي تنمي هذا الجانب، لأن العقل السليم يوجد في الجسم السليم.

* المبدأ الرابع: التساند والتكامل بين الجانب الروحي والمادي.

يعد مبدأ التكامل بين الجانب الروحي والمادي من المبادئ الأساسية التي يركز عليها الفكر التربوي الإسلامي.

ويتم هذا التكامل في إطار من التوازن والاعتدال بين مطالب الروح ومطالب الجسم، حيث يصير كل جانب متمما ومكملا للجانب الآخر، مع عدم الغلو في جانب على حساب الجانب الآخر. مع العلم أن حياة الإنسان ووجوده لا يستقيمان إلا بإقامة التوازن بين الجانبين.

لقد كان الإسلام - وما زال - في مبادئه وتشريعاته وتربيته أكثر واقعية من كثير من المذاهب والشرائع التي اهتمت بجانب واحد وأهملت الجانب الآخر في شخصية الإنسان.

وقد انعكس هذا التصور الواقعي والتكاملي على التربية في الفكر الإسلامي، اعترافا بمكونات الإنسان ومطالبه الروحية والمادية. لأن شخصية الفرد يصيبها الخلل عندما يتم تغليب أحد البعدين على حساب البعد الآخر. ومن هنا كانت الرهبانية مرفوضة في الإسلام، لأنها تلغي البعد المادي في حياة الإنسان.

على أساس هذا التوازن الروحي والمادي تتم مشروعية المعارف والعلوم التي يحتاج لها الإنسان في التصور الإسلامي لتلبية حاجاته الدينية والدنيوية، من أجل سعادته عاجلا وآجلا.

إن العملية التعليمية / التعلمية - باعتبارها تطبيقا لهذا المبدأ - تخضع لهذا التصور التكاملي على مستوى المحتويات والمضامين الدراسية، وعلى صعيد الطرائق والوسائل والأساليب التدريسية، وفي ضوء ذلك تتم عملية التقويم الشمولي.

إن الاعتراف بالبعد المادي إلى جانب البعد الروحي في شخصية الإنسان ليس ضربا من الازدواجية في الشخصية بمعناها السيكولوجي. بل إن ذلك التكامل مرغوب فيه وضروري لحياة الإنسان، بشرط أن يتم ذلك في إطار الوحدة والتوازن بين بعدين لا تستقيم الحياة إلا بانسجامهما وتناغمها، دون أن يطغى جانب على آخر "إن الوحدة ظاهرة بين أجزاء هذا الكون، بين أرضه وسمائه (...) والوحدة ظاهرة - كذلك - في الإنسان وأشواقه، فالإنسان روح ومادة، فرد ومجتمع، أمة وعالم، جيل وإنسانية، وإن أهم انعكاس لهذا المبدأ الأساسي الكبير على العملية التربوية، أنها عملية توحد في النظر إلى العلوم والمعارف جميعا، تلك التي تتناول الكون وظواهره ونواميسه، وتلك التي تتناول الإنسان وأشواقه ونزعاته وتاريخه ومجتمعاته. بالإضافة إلى العلوم التي تبحث في الحياة والأحياء، وما يربط بين واحد وآخر من هذه المعارف والعلوم . . ."6.

إن هذه الوحدة – في إطار من التكامل والتوازن والانسجام والتناغم – تشكل مبدأ من أهم المبادئ في المنظومة التربوية الإسلامية، وتشكل منطلقا وبندا من بنود العملية التعليمية / التعلمية في النسق التربوي الإسلامي. لأنها – (أي الوحدة) – توازن بين النظري

والتطبيقي، بين الجوهر والمظهر، بين المحسوس والمجرد، بين المثالي والواقعي، بين القول والعمل، بين الممكن والطموح، بين العاجلة والآجلة.

قال تعالى: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك"[7].

فالدار الآجلة تحتاج إلى ما يحقق للإنسان الفوز برضى الخالق من الأعمال الصالحة، وهذه الأخيرة لا يتم تحديدها ومعرفتها إلا بواسطة العلوم الدينية، وتبعا لذلك فالعلوم الدينية هي الكفيلة بشرح ذلك وتعليمه وتعلمه.

ونصيب الإنسان في العاجلة يحتاج إلى معرفة سائر الأنشطة التي تقوم بها حياته.

فهو بحاجة إلى إدراك قوانين الطبيعة، كما هو بحاجة إلى معرفة أساليب التواصل والاتصال بين الأفراد والجماعات، من أجل جلب المنافع ودفع المضار.

وهو يحتاج - كذلك - إلى إدراك العلاقات بين مظاهر الطبيعة من أجل تسخيرها واستثمارها لمصلحة بني الإنسان، ومن أجل حفظ النوع وسعادة البشرية.

وهذه المرامي والغايات - كلها - تحتاج إلى علوم ومعارف، وإلى اكتساب قدرات ومهارات تساعده على الحصول على مجموعة من الكفايات.

انطلاقا مما سبق ذكره جاء التعايش - في الفكر التربوي الإسلامي - بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية. بشرط أن تكون هذه العلوم الدنيوية غير متعارضة مع مصلحة الإنسان على المستوى الفردي وعلى الصعيد المادي.

وتعد هذه المعارف والعلوم دليلا يتوصل به المخلوق إلى معرفة إبداع الخالق وقدرته ونظامه.

أما العلوم والمعارف التي يؤدي تطبيقها ونتائجها إلى خراب الحضارة وتدمير المدنية، وتحويل الإنسان من فطرته الإنسانية إلى الطبيعة والغريزة الحيوانية 8 فإنها مرفوضة دينيا وأخلاقيا.

إن العلوم الشريرة الضارة مذمومة من الوجهة الدينية الإسلامية.

وفي هذا الصدد يقول الإمام أبو حامد الغزالي: [لعلك تقول: العلم هو معرفة الشيء على ما هو به، وهو من صفات الله تعالى، فكيف يكون الشيء علما، ويكون مع كونه علما مذموما ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه، وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

الأول: أن يكون مؤديا إلى ضرر، إما بصاحبه، أو بغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات.

الثاني : أن يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان : قسم حسابي قد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب. إذ قال عز وجل : "الشمس والقمر بحسبان"[9]، وقال تعالى : "والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم"[10]، والثاني : الأحكام، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب (...)، ولكن قد ذمه الشرع.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : *"إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا"*[11].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : *أخاف على أمتي بعدي ثلاثا: حيف الأئمة، والإيمان بالنجوم، والتكذيب بالقدر*"12.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر، ثم أمسكوا).

والسبب الثالث : الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه، كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها ...] 13.

ولن يوازن في تبليغ وتدريس هذه العلوم الدينية والدنيوية في الفكر التربوي الإسلامي إلا المربي والمعلم والأستاذ والعالم الذي تتوافر فيه شروط :

الأمانة، وحسن التبليغ، والنظرة الشمولية، والمعرفة والدراية بطرائق التدريس والإفادة، بالإضافة إلى إدراكه لمضامين المعرفة ومحتوياتها، حتى يستطيع أن يكون ناشئة معتدلة وسوية، تكون عاملة لآخرتها ولدنياها في انسجام وتكامل، من أجل عمارة الأرض، والقيام بالمهمة التي أناطها الله به، حيث فضله على سائر الكائنات تفضيلا. "وإن انعكاس هذا المبدإ الإسلامي الكبير- مبدأ التكامل والتوازن - على العملية التربوية يكمن في أهمية هذه النظرة إلى توازن العلوم التي يحتاج إليها الفرد والمجتمع، من علوم إنسانية واجتماعية وطبيعية، مما له علاقة بالكون والإنسان والحياة، ومما سيؤدي إلى سعادة المرء في الدنيا والآخرة، بالإضافة إلى التوازن بين النظرية والواقع، والقول والعمل - "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"14.

ومن بين ما يفيد وما لا يفيد، وبين العلوم الواجبة وفرض الكفاية"15.

بناء مما سبق عرضه وتحليله ومناقشته يتضح أن مبدأ التكامل والشمولية يعد أساسا من أسس الفكر التربوي الإسلامي.

وهذا المبدأ مستمد من فلسفة الإسلام، ومن رؤيته إلى الكون والإنسان. باعتبار أن هذا الإنسان له مطالب روحية تجب تلبيتها، وله مطالب مادية يجب تحقيقها من أجل ضمان التوازن والانسجام والتناغم والتكامل بين الجانبين. فالجانب المادي يساند البعد الروحي ويعززه في التربية التي تستمد أهدافها من روح الرسالة الإسلامية وغاياتها ومراميها ومقاصدها.

وكل إهمال لأحد البعدين على حساب البعد الآخر يؤدي بالإنسان إلى الخروج من فطرته التي فطره الله عليها.

* المبدأ الخامس : المساواة والديموقراطية في التعليم والتعلم.

إن الديموقراطية وتكافؤ الفرص في مجال التعليم والتعلم من الخصائص المميزة للفكر التربوي الإسلامي، إذ لا فرق - في إطار هذه المنظومة - بين الأفراد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وغني عن البيان أن هذا المبدأ مستمد من المبادئ الكلية والعامة للرسالة الإسلامية، هذه الرسالة التي تعامل الناس على أساس التقوى ومعيار الإصلاح، لا على أساس الوضع الطبقي أو الاجتماعي أو السلالي أو الجنسي. إذ لا فرق بين ذكر وأنثى، ولا بين فقير وغني، فالناس سواسية كأسنان المشط.

ولهذا كانت العملية التعليمية / التعلمية غير خاضعة لأي ميز أو تصنيف. "فالعلم باعتباره مطلبا إلزاميا في الإسلام حق لكل فرد، ومن ثم فإن أبوابه يجب أن تكون مفتوحة

أمام كل طالب ومريد . ولقد اتخذ الإسلام والمسلمون عدة إجراءات لتحقيق هذا المبدأ : تخصيص الصدقات – ووقف الأملاك والعقارات وصرف ريعها على المدارس والمعاهد، وحثهم المعلمين على إفادة العلم لوجه الله لا لاكتساب أو جاه"16 .

لقد كانت أغلب المعاهد توفر للمتعلمين فيها - خصوصا الغرباء منهم - الطعام والمسكن بواسطة ريع الأوقاف التي أوقفها أصحابها على طلبة العلم. وقد كان هذا النظام مطبقا إلى عهد قريب بجامعة القرويين بفاس وجامعة ابن يوسف بمراكش في المغرب الأقصى وفي غيره من حواضر العالم الإسلامي.

لقد طبق العالم الإسلامي مبدأ ديموقراطية التعليم في ربوعه، حيث تساوت في هذا الحق كل طبقات المجتمع الراغبة في المعرفة، في الوقت الذي كانت فيه كثير من الأمم والشعوب ترزح تحت وطأة الميز العنصري والطبقي الذي يصنف المجتمع الواحد إلى طبقات وفئات وطوائف طبقا لمعايير تضعها الطبقة الحاكمة التي بيدها مقاليد السلطة وزمامها، حيث كانت التربية والتعليم تختلف من طبقة إلى أخرى حسب السلم الاجتماعي والطبقي، لا حسب الميول والرغبات والمؤهلات الخاصة بكل متعلم.

وبالرجوع إلى تاريخ الفكر التربوي عند بعض الشعوب نقف على ما يأتي :

أ – في الصين : "... إن غرض التربية القديمة عند الصينيين هو إعداد القادة بتزويدهم بالمعارف التي تتصل بنظام المجتمع وصلات أفراده بعضهم ببعض، وإعداد كل أفراد الشعب ليكون سلوكهم حسنا في جميع أعمالهم، وفيما يزاولونه في حياتهم، ومعنى هذا أن التربية عندهم كانت تعنى بالناحية الخلقية الاجتماعية، ووفقا لتقاليدهم القديمة التي احتوتها الديانة الكنفوشية، وكانت التربية للقادة غيرها لجميع أفراد الشعب" 17.

ب – في مصر القديمة : "... كانت التربية في مصر القديمة مقصورة على إعداد طبقة الأورستقراط من الكهنة، وفيهم القضاة، والأطباء، والمهندسون، والكتاب، وجباة الضرائب، والجنود"18.

جـ – في إسبرطة : "كانت التربية في إسبرطة وقفا على الأحرار"19.

من خلال هذه النماذج الثلاثة ندرك البون الشاسع بين التربية والتعليم في الإسلام، والتربية والتعليم عند الحضارات والشعوب القديمة التي كانت ترزح تحت وطأة التقسيم الطبقي.

إذ أن التربية والتعليم والتعلم في الإسلام حق مشاع بين الناس، لا فضل لطبقة على أخرى إلا بالتقوى والعمل الصالح. فالعلم والتعليم والتعلم حق من حقوق الإنسان.

وإذا رجعنا إلى التاريخ الإسلامي، فإننا نجد رجال الفكر والعلم في العالم الإسلامي ينتمون - في أغلبهم - إلى الطبقة الشعبية التي لا حول لها ولا قوة، الشيء الذي يفسره القول السائر: "لولا أبناء الفقراء لضاع العلم".

وقد تختلف تطبيقات مبدإ ديموقراطية التعليم من قطر إلى آخر، ومن مصر إلى أخر. ولكن المبدأ الأساسي يظل ثابتا، ولهذا كان المربي المسلم يضع نصب عينيه هذا الأساس الذي يعد من أهم أسس الفكر التربوي الإسلامي.

* المبدأ السادس : اعتبار العلم هدفا أساسيا في حياة الإنسان على المستوى الفردي والجماعي.

إن الإقرار بأهمية العلم والمعرفة في حياة الإنسان على المستوى الفردي والجماعي يعد من المبادئ الأساسية في الرسالة الإسلامية بصفة عامة، وفي المنظومة التربوية - التي تتخذ

مرجعيتها من هذه الرسالة – بصفة خاصة، لأن الإسلام يريد الفرد المسلم الذي يقوم دينه وتتأسس دنياه على دعائم ثابتة من العلم والمعرفة، لأن الظن لا يغني عن العلم شيئا. وفي هذا الإطار تمت العناية بالعلم والعلماء أولي الألباب وذوي العقول. يقول الله تعالى: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير"20.

وقال تعالى أيضا: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب"21.

إن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على طلب العلم والمعرفة، وترفع من شأن العلم والعلماء والمعلمين والمتعلمين كثيرة العدد ومتنوعة الصيغ.

فكل خطاب في هذه النصوص ينادي العقل، ويشجع على التدبر والتفكير في الكون ومظاهره، وفي النفس وأهوائها ونوازعها. "... هذا وقد ورد العلم ومشتقاته في نحو تسعمائة موضع من القرآن الكريم، الأمر الذي لم يكن لغيره من الحقائق التي ورد ذكر لها في كتاب الله، ويكفي تنويها بالعلم ورفعا لقدر أهله أن كان صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، فهو جل شأنه : عالم، وعليم، وعلام"22.

إن العلم الذي يدعو إليه القرآن الكريم ليس مقتصرا على العلم الديني - كما يظن ويدعي البعض ممن تأثروا بالاتجاهات اللائكية الداعية إلى فصل الدين عن الدولة والحياة، نظرا لما مارسته الكنيسة باسم الدين على العلماء من إرهاب وقمع واغتيال، ونفي لكل تفكير لا توافق عليه هذه الكنيسة - بل عن مدلول العلم ومفهومه في القرآن الكريم شامل، يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا، لأن الإسلام دين ودنيا، عقيدة وشريعة، عبادة ومعاملات، ملة ومذهب ودولة ...

والشرط الوحيد الذي يشترط في كل علم - بالمفهوم الإسلامي - هو أن يكون هذا العلم غير متعارض مع أي أساس من أسس الدين، وأن يكون هادفا إلى تحقيق مصلحة الإنسان.

"والعلم الذي يشيد به القرآن ويدعو إليه هو العلم بمفهومه الشامل الذي ينظم كل ما يتصل بالحياة، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الديني، كما يتبادر إلى بعض الأذهان، أو ما ذاع في عهود التخلف عن القرآن. فقد دعا إلى النظر في مظاهر الوجود، ومظاهر الحياة، كما دعا إلى دراسة الكائن البشري - (وفي الأرض آيات للموقنين - وفي أنفسكم أفلا تبصرون)23 - ووجه إلى علم النبات والجماد والحيوان والأجناس - (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور"[24] - وجعل من الكون كتابا للمعرفة، ووجه القلوب والعقول والأبصار إلى بدائع صنع الله فيه، ودعا إلى التفكير في آياته واستكناه أسراره وفهم نظمه ونواميسه، ففتح بهذا العرض والتوجيه باب العلم، وحرر العقول والتفكير من أسر الجمود والجهل، وأغرى بالبحث والدراسة والعلم. ولقد خلق سبحانه كل شيء وسيره وفق قانون، وهيأ الإنسان لمعرفة هذا القانون واستعماله بما فطره عليه من استعداد لفهمه وتسخيره"25.

إن معيار قياس المعرفة في الإسلام هو ألا تتعارض هذه المعرفة مع فلسفة الإسلام ونظرته إلى الكون والإنسان. وكل معرفة لا تتعارض مع هذه النظرة فهي معرفة مقبولة ومباحة، وقد تصير مندوبة، ومنها ما يصل إلى درجة فروض الكفاية، وقد تصير فرض

عين متى كانت ضرورية لقيام الحياة أو لبناء المجتمع من أجل سعادة الإنسان في دينه أو دنياه / في عاجله أو آجله.

"إن كل معرفة تتم في إطار العقيدة الإسلامية، وفي إطار الأحكام والقيم التي رسمها الإسلام للمسلم، هي معرفة إسلامية، إن لم تكن واجبة على سبيل العين أو الكفاية، فهي على الأقل مباحة. وكل المعارف التي من شأنها أن تؤدي إلى خير الإنسان وخير المجتمع وخير الإنسانية عامة - إذا تمت في الإطار الإسلامي الذي ذكرناه - تعتبر معارف إسلامية، لا فرق فيها - في هذه الصفة - بين كونها متعلقة بأمور العقيدة والشريعة والأخلاق، أو بأمور الدنيا في مجالاتها المختلفة"26.

وإذا كان الإسلام قد اعتبر العلم والمعرفة حقا من حقوق الإنسان، فإنه حث على نشر هذا الحق وتمتيع الجميع به. حيث توعد النبي صلى الله عليه وسلم كاتم العلم بأن يتبوأ مقعده من النار.

والتاريخ الإسلامي خير شاهد على ازدهار العلم والمعرفة في ربوع العالم الإسلامي عندما عمت حرية الفكر التي نبغ تحت ظلالها طائفة من العلماء والمفكرين في مختلف مجالات العلم والعرفان :

في الفلسفة والمنطق، في علوم الطبيعة والفيزياء والكيمياء، في الطب والصيدلة والأعشاب، في الرياضيات والحساب والهندسة ...

كانت هذه المعارف والعلوم كلها تعلم وتتعلم بموازاة مع علوم التفسير والفقه والحديث، إلى جانب علوم اللغة والنقد والبلاغة... بالإضافة إلى الجدل والمناظرة وعلم الكلام ...

كانت كل هذه المعارف تتعايش في سلام وأمن لتشكل منظومة في إطار الثقافة الإسلامية، إلى جانب الفنون الشعرية والنثرية ... وتأسس في ضوء هذه المعارف والفنون جدل وحوار، ونشأت المذاهب والمدارس الفكرية، وشيدت المعاهد وبيوت الحكمة في أحضان ثقافة إسلامية ترجمت إلى حضارة إنسانية. لأن الإسلام يعتمد في مبادئه التربوية على أهمية دور العلم والمعرفة في بناء الإنسان وتشييد الحضارة وإعلاء صرح المدنية.

ونظرا لكون العملية التعليمية / التعلمية تشكل الإطار التطبيقي لكل فعل تربـوي / تهذيبي، فإن علماء التربية من المسلمين قد حددوا لكل مكون من مكونات هذه العملية شروطا تستمد مشروعيتها من المبادئ الكلية للإسلام، ومن الأعراق والمواضعات الإنسانية التي لا تتعارض مع هذه المبادئ، بالإضافة إلى خبرة هؤلاء العلماء واجتهاداتهم الفكرية والتطبيقية.

* المبدأ السابع : الحرية في إطار المسؤولية.

تعد الحرية- في إطار المسؤولية الدينية والأخلاقية- من أهم المبادئ التي ينطلق منها الإسلام باعتباره دينا وتشريعا ونظاما، باعتباره منهجا ومنهاجا للتربية الأخلاقية والسلوكية والعملية، هذا المنهاج الذي تجسده العملية التعليمية / التعلمية على المستوى النظري وعلى الصعيد التطبيقي.

ولقد جاء الإسلام بمبدإ التحرر، لأن هذا المبدأ لا يطرح إلا عند انعدام الحرية، أو عند وجود حاجز يحول دون ممارسة هذا الحق الإنساني.

وبالرجوع إلى السياق التاريخي الذي جاء فيه الإسلام نقف على مجموعة من العوائق والكوابح التي كانت تصادر حرية الفرد وتقف دون تحرره. ومن هذه السلط القهرية، سلطة القبيلة المدعومة بمجموعة من التقاليد والأعراف التي ما أنزل الله بها من سلطان.

فقد كان الفرد جزءا بسيطا وصغيرا في جهاز القبيلة. وهذه الأخيرة كانت تركز في سلطتها على الولاء والعنجهية، فابتلعت الفرد، وضاعت حريته، حتى أصبح شعاره :

وما أنا إلا من غزية إن غوت ❁ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ثم تأتي بعد هذه السلطة سلطة الوثنية التي قمعت في هذا الفرد حرية الفكر والتدبر في مظاهر الكون، وفي ملكوت السماوات والأرض، وتخصيص خالق هذا الكون بالعبودية وإخلاص العبادة له وحده.

وبمجيء الإسلام تم القضاء على هذه السلطة الصنمية التي قيدت حرية الإنسان ووقفت حاجزا منيعا أمام تحرره على كافة المستويات : عقليا، ووجدانيا، وعاطفيا ...

فتمتع الإنسان مع الدين الجديد بالحرية في إطار المسؤولية، إذ إن الحرية عندما تخرج عن إطار المسؤولية تتحول إلى فوضى وتقضي على نفسها بنفسها.

ولهذا يقال : "إن الحرية المطلقة تحمل جرثومة موتها في أحشائها".

كما أنه "في إطار الفوضى يريد كل فرد أن يمارس حريته المطلقة، وباصطدام الرغبات يتحول الوضع إلى صراع، وفي هذه الحالة يسود قانون الأقوى وتعم شريعة الغاب".

ولهذا نجد الحرية في الإسلام مرتبطة بالمسئولية. وبما أن العلم نوع من أنواع التحرر من سلطة الجهل، فإنه مرتبط بالمسئولية، لأن العلم يحرر العقل الذي هو أساس التكليف، بل إنه شرط من أهم الشروط الموجبة لهذا التكليف.

كما أن العقل أساس لوجود العلم وتحصيله وتوظيفه.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي : "... اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لاسيما وقد ظهر العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين" 27.

فالعقل أداة لاكتساب العلم، والعلم وسيلة للتحرر، والعقل شرط من شروط التكليف، والتكليف شرط لتحمل المسئولية، وتحمل المسئولية إطار لأداء الواجب في مقابل التمتع بالحقوق، ومن هذه الحقوق حق الحرية.

انطلاقا من هذا التحليل يتم التوصل إلى أن العلم مرتبط بالمسئولية.

والحرية والتحرر في الإسلام مكفولان داخل إطار المسئولية الخاضعة للعقل. قال النبي صلى الله عليه وسلم : "*أول ما خلق الله العقل، فقال له : اقبل، فأقبل، ثم قال له : أدبر، فأدبر، ثم قال له عز وجل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب*"28.

وإذا كان التحرر مرتبطا بالمسئولية، فإن هذه الأخيرة مرتبطة بالتكليف، والتكليف مرتبط بالعقل، والعلم هو ثمرة العقل العاقل المتحرر.

ومن خلال هذا الارتباط الوثيق بين العلم والتحرر نجد أن هذا ألخير هو نتيجة من نتائج العلم في مجال الفكر الإسلامي، غير أن الظن لا يغني عن العلم شيئا . وهل يتساوى من يعلم بمن لا يعلم في حريته وتحرره وتحمله للمسئولية من اجل أداء الأمانة؟

إن التربية في الإسلام تسعى إلى تنمية جميع قوى الإنسان : على المستوى العقلي وعلى المستوى العاطفي والوجداني، وفي المجال الحسي/ الحركي، من أجل أن يتحرر الإنسان، وأن يتحمل مسئوليته ويؤدي الأمانة في عمارة الأرض وإقامة الحضارة ومحاربة الطاغوت.

"إن التربية الإسلامية تربية تحررية، لأنها تحرر العقل من التعصب الأعمى أو التزمت، أو الانغلاق، أو ضيق الأفق والإيمان بالأوهام والأساطير، كما أنها تحرر النفس من الخوف والعبودية والضعف - فالمسلم القوي خير من المسلم الضعيف - وتحررها أيضا من الخبث والدنس واللؤم ... وهي أيضا تحرر الجسم من كل ما يدنسه ويعيبه، وتقيمه على الطهارة والنظافة والعناية والاهتمام به، كما تحرره من الخضوع للذات والشهوات. ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء/ أخيه في الإسلام : إن لبدنك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه"29.

إن مبدأ التحرر يستمد مشروعيته من طبيعة الإنسان، ومن ميله إلى تغيير واقعه نحو الأحسن، ومن سعيه إلى التطلع نحو المجهول من أجل المغامرة، والإبداع والاكتشاف والمعرفة في سبيل إدراك سنن الله في الكون.

ولا يتم هذا الاكتشاف والإبداع إلا في ظلال الحرية التي تجعل الإنسان متحررا من هيمنة الفكر الخرافي والأسطوري الذي يقيم حاجزا من الجهل بين الإنسان وواقعه فوق هذه الأرض.

والخطاب القرآني صريح في توجيه نظر المسلم / المؤمن إلى التدبر في مظاهر الكون من أجل التذكر والتفكير من قبل ذوي الألباب.

إن كل جانب من جوانب الإنسان بحاجة إلى :

- تحرير العقل من الخرافة والشعوذة والجهل بحقائق الأشياء.

- تحرير النفس من نوازع الشر والطغيان وعبادة الشيطان.

- تحرير القلب من أدواء الضغينة والحسد والخوف واحتقار الإنسان.

- تحرير الجسم من أسباب المرض والضعف ومهلكات الأبدان.

والهدف والغاية من كل تحرر هو الارتفاع بالإنسان إلى مستوى المسئولية والأمانة التي تطوع لحملها فوق هذه الأرض.

قال تعالى : " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " 30.

وبناء على مبدأ الحرية نجد العملية التعليمية / التعلمية في الفكر التربوي الإسلامي تتسم بطابع التحرر، سواء كان ذلك على مستوى المدرس المربي، أو على مستوى المتلقي.

إلا أن هذا التحرر وهذه الحرية مقيدان بآداب المعلم والمتعلم، وآداب الدرس، ثم بآداب الإفادة والاستفادة.

* المبـدأ الثامـــن : مبدأ الارتباط بين العلم والعمل، بين النظري والتطبيقي، بين القول والممارسة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : "*طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه في غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، وخالط أهل العفة والحكمة، ورحم أهل الذل والمسكنة. طوبى لمن طاب نسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله*"31.

إن العلم ليس غاية في حد ذاته، إذ لو كان كذلك لأصبح ترفا فكريا وهواية بدون هدف.

ولكن العلم بالشيء هو معرفته من أجل الانتفاع به - إذا كان مرغوبا فيه - أو الابتعاد عن شروره إذا كان غير مرغوب فيه دينا أو دنيا. إن العلم في الفكر التربوي الإسلامي مرتبط بالعمل.

وقد نصت النصوص الدينية : القرآنية منها والحديثية على ارتباط العلم بالعمل.

لقد ركز المربون المسلمون على هذا الجانب - الجانب العملي - سواء كان هذا العلم يتعلق بأمور العقيدة، أو بأمور تهم الدنيا وتدبير شؤونها. لأن الإيمان المبني على العلم يكون أكثر رسوخا.

قال الله تعالى : "إنما يخشى الله من عباده العلماء". والمراد بالعلماء في الآية الكريمة هم العلماء العاملون بعلمهم، الذين وصلوا بواسطة هذا العلم إلى خشية الله والإيمان الراسخ بقدرته.

إن العلم مرتبط بالعمل، سواء كان هذا العلم متعلقا بالعبادات، أو كان متعلقا بشؤون الناس وأمور الحياة، من أجل سعادة الإنسان في إقامة الحضارة وتشييد المدنية.

وقد روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال : "يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، ويقعدون حلقا، فيباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه. أولئك لا تسعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل"32.

إن المعرفة عندما تصبح غاية - في حد ذاتها - تتحول إلى ترف فكري ومباهاة. والمعرفة النافعة هي التي يوظفها الإنسان من أجل إسعاد بني جنسه. وهذه السعادة بحاجة إلى العلم والمعرفة، كما أن هذا العلم بحاجة إلى التطبيق قولا وعملا.

قال أبو الحسن الماوردي : "... وليكن من شيمته (أي العالم) العمل بعلمه، وحث الناس على أن تأمر بما يأمر به، ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)، وقال قتادة في قوله تعالى : (وإنه لذو علم لما علمناه)، إنه العامل بما علم، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "*ويل لجماع القول ! وويل للمصرين*"، يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به"]33.

إن ثمرة العلم والمعرفة هي التطبيق والممارسة.

عن أبي بن كعب قال: تعلموا العلم واعملوا به، ولا تتعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه"34.

إن العملية التعليمية في الفكر التربوي الإسلامي تخضع لهذا المبدأ الأساسي الذي يرتبط فيه العلم بالعمل. سواء تعلق الأمر في هذه العملية بالمدرس، أو بالطالب المستفيد باعتباره متلقيا.

وإن النصوص التي تحث على العمل بالعلم متوافرة في الفكر الإسلامي انطلاقا من القرآن الكريم والحديث النبوي. بالإضافة إلى أقوال الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين بعلمهم.

يقول ابن مسكويه: "... فأفضل الناس أقدرهم على إظهار فعله الخاص وألزمهم له من غير تلوم فيه ولا إخلال به، في وقت دون وقت، وإذا عرف الأفضل، فقد عرف الأنقص على اعتبار الضد. فالكمال الخاص بالإنسان كمالات، وذلك أن له قوتين : إحداهما العالمة، والأخرى العاملة. فلذلك يحتاج بإحدى القوتين إلى المعارف والعلوم، وبالأخرى إلى نظم الأمور وترتيبها.

أما كماله الأول بإحدى قوتيه - أعني العالمة - وهي التي يشتاق بها إلى العلوم، فهو أن يصير في العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته، وتستقيم رؤيته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشك في حقيقة (...).

وأما كماله الثاني الذي يكون بالقوة الأخرى - أعني القوة العاملة - وهو الكمال الخلقي، ومبدأه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها، حتى تتغلب، وحتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي، وينتهي إلى التدبير المدني الذي يرتب الأفعال والقوى بين الناس.

فإذا الكمال الأول / النظري منزلته منزلة الصورة. والكمال الثاني منزلته منزلة المادة، وليس يتم أحدهما إلا بالأخرى، لأن العلم مبدأ والعمل تمام، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعا، والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلا"35.

إن الجانب العملي هو الغاية، وهو الهدف من علم ومعرفة.

أما المعرفة بدون عمل فهي ترف فكري ونوع من الزينة والتباهي والمشي في الأرض مرحا.

إن القوة العالمة في الإنسان بحاجة إلى القوة العاملة، إذ أنهما وجهان لعملة واحدة. وهذا مبدأ أساسي من مبادئ التربية في الإسلام.

والعبرة في العلم ليست بالكم، بل بالعمل، وبما حصل عليه الإنسان من هذا العلم لصالحه ولصالح الإنسانية من المنافع.

لهذا وجب الاهتمام بالأهم، ثم المهم من العلم. "كم من متعلم طال تعلمه، ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم فتح الله عليه من لطائف الحكم تحاور عقول ذوي الألباب. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من عمل بما علم ورثه الله ما لم يعلم"36.

هذه هي أهم المبادئ والأسس المرجعية التي ينطلق منها الفكر التربوي الإسلامي.

وهي مجموعة من المبادئ التي تستقي مشروعيتها وتتخذ مرجعيتها من الفلسفة العامة للفكر الإسلامي.

هذه الفلسفة التي تستمد عناصر منظومتها من التصور الإسلامي، ومن نظرته إلى الكون والإنسان والحياة، ومن رؤية الإسلام إلى العلاقة بين هذه العناصر المتساندة في نظام وتناغم وانسجام.

وكل عملية تربوية - انطلاقا من الفكر التربوي الإسلامي - لابد أن تكون مستلهمة في تصورها لهذه المبادئ، سواء كان الأمر متعلقا بالبعد التهذيبي للسلوك. أو كان الأمر متعلقا بالجانب التعليمي المرتبط باكتساب المعارف. في جو من التفتح والاجتهاد الذي لا يتعارض مع الرؤية التربوية الإسلامية التي تنظر إلى الإنسان باعتباره عنصرا فاعلا ومنفعلا مؤثرا ومتأثرا في إطار المنظومة الكونية.

الهوامش

1- الآية 137 من سورة البقرة.

2- الإمام محمد بن علي الشوكاني - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول - دار الكتب العلمية / بيروت - الطبعة الأولى - سنة 1414 هـ 1994 - ص 371.

3- أورده يوسف بن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله) - الجزء الأول - دار الكتب العلمية - طبعة 1978 - ص: 8.

4- المصدر السابق - ص 4/3.

5- الآيات 40/39/38 من سورة النجم.

6- الدكتور إسحق فرحات (و) الدكتور توفيق مرعي (و) أحمد بلقيس - المنهج التربوي بين الأصالة والمعاصرة - دار الفرقان / عمان - الطبعة الثانية - سنة 1984 - ص 67.

7- الآية 77 من سورة القصص.

8- قال العلامة المرحوم / علال الفاسي في كتابه "عوامر الكلم وثمرات الأوراق": الذين يفسرون الفطرة بالطبيعة يغلطون غلطا فاحشا، لأن الطبيعة هي ما طبعت عليه الكائنات، والفطرة هي ما فطر عليه الإنسان كإنسان. فالطبيعة مادة الحيوانية، والفطرة روح الإنسانية.

9- الآية 3 من سورة الرحمن.

10- الآية 38 من سورة (يس).

11- رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناذ ضعيف.

12- أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي محجن بإسناد ضعيف.

13- أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - الجزء الأول - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - سنة 1986 - ص 42/41.

14- الآيتان 3/2 سورة الصف.

15- الدكتور إسحق أحمد فرحان - مصدر سابق - ص 68/67.

16- جمانة البخاري - التعليم عند الغزالي - المؤسسة الوطنية للكتاب / الجزائر - سنة 1977 - ص: 11 (بالإحالة على أحمد شلبي في: تاريخ التربية الإسلامية - ص: 233).

17- الدكتور صالح عبد العزيز، والدكتور عبد العزيز عبد المجيد - التربية وطرق التدريس - الجزء الأول - دار المعارف المصرية - الطبعة التاسعة - سنة: 1968 - ص: 331.

18- المصدر السابق - ص : 33.

19- المصدر السابق - ص : 33.

20- الآية 11 من سورة المجادلة.

21- الآية 10 من سورة الزمر.

22- الدكتور عمر التومي الشيباني - فلسفة التربية الإسلامية - المنشأة العامة للنشر والتوزيع / طرابلس/ ليبيا - الطبعة الرابعة - سنة 1983 ص 185.

23- الآيتان 21/20 من سورة الذاريات.

24- الآيتان 28/27 من سورة فاطر.

25- محمد شديد - منهج القرآن في التربية - دار الأرقم، بيروت - ص 137.

[نقلا عن كتاب: فلسفة التربية الإسلامية - للدكتور عمر التومي الشيباني - مصدر سابق - ص : 186/185].

27- أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين - الجزء الأول - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - سنة 1986 - ص: 99.

28- الحديث ذكره أبو حامد الغزالي في الجزء الأول من إحياء علوم الدين، وقد أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبي نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين.

29- الدكتور محمد منير مرسي - التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية - عالم الكتب / القاهرة - طبعة 1983 - ص : 59.

30- الآية 72 من سورة الأحزاب.

31- الحديث رواه البخاري في تاريخه، والبغوي، والطبراني في معجمه الكبير، والبيهقي في السنن، (ينظر كتاب: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لابن عبد البر - الجزء الثاني - دار الكتب العلمية - سنة 1978 - ص: 14).

32- المصدر السابق - ص 7.

33- أبو الحسن الماوردي - أدب الدنيا والدين - دار الفكر - تحقيق : مصطفى السقا - الطبعة الثالثة - بدون تاريخ - ص 84 / 85.

34 – ابن عبد البر - مصدر سابق - ص 6.

35- ابن مسكويه - تهذيب الأخلاق - دار الكتب العلمية / بيروت - الطبعة الأولى - سنة 1981 - ص 34/33/32.

36- الشيخ عبد الباسط العلموي - المعيد في أدب المفيد والمستفيد (نشره محمد زيعور ضمن كتابه : الفكر التربوي عند العلموي) - دار اقرأ - الطبعة الأولى - سنة 1986 - ص 99.